مجلة فصل الخطاب Journal of Faslo el-khitab
ISSN:1071-2335/ E-ISSN:2602-5922/ Legal Deposit N°: 2012-1759
مجلد 15، عدد رقم:02، جوان 2026، صص: 89- 103

تاريخ الاستلام(2025/11/12) تاريخ القبول (2026/05/20) تاريخ النشر (2026/06/30)

مفهوم الخطاب بين الجاحظ وحازم القرطاجني – مقاربة في المفهوم والوظيفة

The Concept of Discourse between Al-Jahiz and Hazim al-Qartajanni: An Approach to Concept and Function

د قيوس محمد . كراش بن خولة
مخبر الخطاب الحجاجي أصوله ومرجعياته وآفاقه في الجزائر
[1] جامعة ابن خلدون تيارت، (الجزائر)، mohameddekious3@gmail.com
[2] جامعة ابن خلدون تيارت، (الجزائر)، karrachebenkhaoula64@gmail.com

ملخص:

يقال إنّ حضارة العرب حضارة نص، لكونهم برعوا في القول والكلام حتى عرفوا بهما، وقد بلغ العرب الذّروة في مختلف العلوم والمعارف، وألفوا في ميادين شتى، منها البلاغة وفنّ القول، ومن أبرز من كان لهم شأن في علوم اللغة والبيان الجاحظ حازم القرطاجنّي، الأوّل ألف البيان والتّبيين، والثّاني صنف منهاج البلغاء وسراج الأدباء، وقد ضمنها مؤلفيهما عصارة بحثهما وفكرهما في فنون القول ونظم الكلام نثرا وشعرا، ومن بين هذه الفنون غفنّ الخطابة، الذي وضع له كلّ منهما جملة في القواعد والأسس التي ينبني عليها وبها الخطاب، ويستند إليها ليبلغ غايته التواصلية المتمثلة في التأثير والإقناع، تهدف هذه الدّراسة إلى البحث في التّصورات المفاهيمية للخطاب عند كلّ من الجاحظ وحازم القرطاجنّي.

كلمات مفتاحية: الخطاب؛ الجاحظ؛ حازم القرطاجنّي؛ البيان؛ الإقناع؛ الحجاج

Summary:
It is said that Arab civilization is a civilization of text, due to the Arabs' mastery of speech and expression, through which they became widely recognized. Arabs reached the pinnacle in various fields of knowledge and sciences, producing works across multiple disciplines, including rhetoric

المؤلف المرسل:دقيوس محمد، الإيميل:mohameddekious3@gmail.com

and the art of discourse. Among the most prominent figures in the sciences of language and eloquence are Al-Jahiz and Hazim al-Qartajanni. The former authored Al-Bayan wa al-Tabyin, while the latter wrote Minhaj al-Bulagha' wa Siraj al-Udaba'. In these works, both scholars encapsulated the essence of their research and intellectual thought on the arts of expression and the organization of speech in both prose and poetry.Among these arts is oratory (khitaba), for which each of them established a set of rules and foundations upon which discourse is constructed, enabling it to achieve its communicative goal of influence and persuasion. This study aims to examine the conceptual representations of discourse in the thought of both Al-Jahiz and Hazim al-Qartajanni.
Keywords:Discourse; Al-Jahiz; Hazim al-Qartajanni; eloquence; persuasion; argumentation

1. مقدمة:

يعدّ مفهوم الخطاب من المفاهيم المحورية في التراث النقدي الغربي بما ينطوي عليه من أبعاد معرفية وجمالية ووظائف تواصلية متشابكة، وقد حظي هذا المفهوم بعناية خاصة لدى كبار النقاد والمفكرين وفي مقدّمتهم الجاحظ وحازم القرطاجني إذ سعى كلّ منهما إلى بلورته في إطار تصوّر شامل يراعي في طبيعته العملية الإبلاغية وأبعادها البلاغية والبيانية والحجاجية.

تسعى هذه الدّراسة إلى الكشف عن معالم مفهوم الخطاب ووظيفته التواصلية في فكر كلّ من الجاحظ وحازم القرطاجني من خلال تتبع مسار هذا المفهوم في كتاب كل منهما –البيان والتبيين- للجاحظ ومنهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجنّي.

فقد نظر الجاحظ إلى الخطاب باعتباره أداة للإفهام والإقناع، يقوم على الملاءمة بين اللفظ والمعنى، واستدعاء مقامات القول وطبائع المخاطبين، بينما يطلق حازم القرطاجنّي من رؤية مركبة تجعل نسبة متكاملة تتداخل فيها الأبعاد البلاغية والجمالية والحجاجية.

2.مفهوم الخطاب عند الجاحظ: البيان والوظيفة التواصلية

جاء القرءان الكريم مخاطبا العرب بلغتهم، متحديا إياهم في ميدان الفصاحة والبيان فوعوه وأدركوا أبعاده لأنّهم كانوا أهل خطابة وبلاغة، بل لم يكن لهم في محيطهم الحضاري ذكر أرفع من الكلمة البليغة والخطاب المؤثر، ومن هنا تتجلّى أهمية دراسة مفهوم الخطاب في التراث العربي، وخاصة عند الجاحظ الذي وسم إنتاجه الفكري برؤية

بيانية وظيفية تواصلية مميزة، تعتمد على البيان والإقناع، وغايتها التأثير في المخاطب (المتلقي)، بما يخص غاية معينة، سواء كانت نقل معرفة أو التأثير في الرأي، أو التّعبير عن موقف أو معتقدات أو استشارة عواطف ومشاعر.

وهذا ما نلمسه في قول الجاحظ في مؤلفه البيان والتّبيين، إذ وصف الخطاب بأنّه وسيلة تواصلية بغرض الإفهام والتأثير، وهو ما أشار إليه في حديثه عن البيان: "والبيان اسم جامع.... لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير حتّى يفضي السّامع إلى الحقيقة، في ذلك الوضع"[1].

فالجاحظ هنا يعرف البيان على أنّه كلّ ما يكشف عن المعنى ويرفع أغلفة الحجب عن الضّمير حتى يتمكن المتلقي من الوصول إلى الحقيقة أو المقصد أو المعنى، وهذا يعني أنّ البيان هو تلك المهارة التي يتميز بها المخاطب التي يمكنه من الإفهام والإيضاح، إنّ باللفظ أو الإشارة.

ووفق تصور الجاحظ فإنّ الخطاب ليس مجرّد ألفاظ تقال أو إشارات تؤدى، بل هو شبكة من العلاقات المتداخلة التي تمنحه خصائصه وقدرته على التأثير، فالغاية من كل خطاب في نظره هي التأثير في المخاطب قثم حمله على الاقتناع برأي أو موقف معيّن.

ويؤكد الجاحظ هذه الرؤية في البيان والتّبيين بما نصه "...والغاية التي يجري إليها القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[2] وهذا النّص يبرز أنّ البيان بما يتضمنه من وسائل لفظية أو غير لفظية إنّما هو أداة لفهم المعنى وإيصاله بوضوح، مما يجعله أساسيا في تحقيق التأثير والإقناعية للخطاب.

وضمن هذا التّصور، فإنّ ما يميّز مشروع الجاحظ، وهو الذي خطّ الخطزات الأولى في حقل البلاغة العربية حتّى أنّ بعض الدّارسين يطلقون عليه "الحدث الجاحظي" وهو تأكيده أنّ أثر الخطاب في المتلقي لا يبلغ المدى المطلوب ما لم تتوافر فيه عوامل محيطة به تتلعق بسياق الفعل التواصلي، وهو ما أشار إليه النّاقد التونسي حمادي صمود في كتابه النقد البلاغي عند العرب، إذ يقول: "وإنجاز الكلام يقع لغايات وينزل في مقامات، لذلك وجبت مراعة منزلة السامع ومستلزمات المقام"[3]

وقد حدّد صاحب البيان والتبيين ملامح المتلقي من وجهة لغوية تكشف منزلة اجتماعية وانتماءه الطّبقي، استنادا إلى قوله: "ومدار الأمر على إفهام كلّ قوم بمقدار طاقتهم والحمل عليهم على أقدار منازلهم"[4] وهذا ما يبرز مبدأ وسطية الجاحظ في الخطاب، وهو بعيد عن الشدق من جهة، ويتعفّف عن الميوعة من جهة أخرى، ويرى أنّ لكل معنى لفظا يناسبه، فإذا شرف المقصود اختير له لفظ شريف يلائمه.

فلكي يكون للخطاب غاية ومعنى فإنّه "يتطلب سامعا جيّدًا نشطا، فالجاحظ يعي البعد التّداولي للكلام، فلما تنتفي القابلية لدى السّامع للتّلقي معنى هذا، إيقان عملية التّواصل لأنّها ستكون غير مجدية، وستنقصها أحد الأطراف الضّرورية وهو وجود السامع الذي يعي ما يرد إليه"[5]

ومن الركائز التي تسهم في تبيين رؤية الجاحظ لمفهوم الخطاب إشارته إلى الهيئات التي يكون عليها الخطيب من صفات وأخلاق، باعتبارها دعائم تعزّز قوّة الخطاب الإقناعية، ولم يكتف الجاحظ بهذا الجانب، بل دعم رؤيته بشواهد من خارج الثقافة العربية، وهو ما نبّه إليه الدّكتور عبد الهادي بن ظافر الشّهيري في كتابه استراتيجيات الخطاب، إذ أثار إلى أنّ الجاحظ حاول توضيح مفهومي البيان والبلاغة مستشهدا بما لدى الأمم الأخرى من نظر في هذا الباب.

فقد أورد ما جاء في صحيفة هندية يقول فيها: "أوّل البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخير اللفظ، لا يكلّم سيّد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السّوقة"[6].

ويكشف على الاستشهاد عند إدراك الجاحظ لأهمية العلامات السّيميائية المصاحبة لعملية الخطاب، ومدى إسهامها في تعزيز طاقته الإقناعية، ومن ثمّ فإنّ البيان في نظره هو جوهر الخطاب، لما له مندور في إيضاح المعنى، وضمان تبليغه على أحسن هيئة، الأمر الذي يقيم الحجة لدى السامع ويقوده إلى الاقتناع بمضمون الخطاب وغاياته.

ومن الثّابت أن أي نظرية أو قاعدة أو مبدأ يعدّ من الركائز الأساسية لأي هدف، فلا تنشأ اعتباطا أو تأتي من فراغ، بل تتولد عن الممارسة والتجربة وتكرار الحوادث والسّلوكات، فسّر ذلك انتباه عقل فطن وقلب ذكي يعمل على استنباط الأحكام الناظمة والضبابية لتلك الظّواهر، ومنها الكلمة والخطاب.

وبناءً على هذا كان للجاحظ صاحب البيان والتبيين فضل بيّن في استنباط القواعد البلاغية الناظمة للكلام سواء مما ورد في القرآن الكريم، أو من إشعار العرب وخطبهم وأمثالهم، او حتى من ثقافات أمم أخرى، وقد مكنه هذا المنهج من صياغة تصوّرات واسعة لبلاغة الخطاب، متجاوزا ما وضعه أسلافه من قواعد وتصنيفات جزئية صغيرة هنا وهناكن ولتأسيس عند روية أكثر شمولا لبلاغة التّأثير والإقناع.

ولعلّ أبرز استشهادات الجاحظ التي تسهم في إبراز مختلف الأبعاد التصّورية للخطاب، ونكاد يمثّل خلاصة نظره، صحيفة بشر بن المعتمر، ومما ورد فيها قوله: "فإن أمكنك أن نبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك إلى أن تفهم العامة معاني الخاصة، ونكسوها اللفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء ولا تجفو عند الأكفاء، فأنت البليغ التّام"[7].

ويعلّق الدكتور حسني خمري على هذا المقطع قائلا: "من هنا ينصع أن البيان لا يتأتى إلا بوجود مجموعة من الشروط، منها تميز المقامات المختلفة والكيفيات المتعدّدة للتّعامل مع اللغة وسيستها، أي تطويعها للتعبير عن الأغراض المتكلّم ومقاصده ومن ثمّ مطابقتها لها"[8].

وبناء على ما سبق، فيمكن استنتاج جملة من الأسس التي ينبني عليها الخطاب عند الجاحظ نوجزها فيما يلي:

-كيفية بناء الخطاب بحيث يسهل على المتلقي فهم مضامينه، ومن ثم تحقيق غاياته، وذلك بالاهتمام بصفاء اللغة والابتعاد عن غريب الألفاظ غير المتداولة.

موافقة الكلام لمنازل النّاس، أي أن يكون لكل مقام مقال، مراعيا احوال المخاطبين ومستوياتهم الفكرية والاجتماعية.

قبل الجاحظ وحتى في زمنه لم تكن البلاغة قد بلغت ذلك الزّخم من القواعد والمعايير التي عرفت بها لاحقا، إذ لم يكتمل شكلها في صورتها المتداولة والمتعارف عليها إلا مع عبد القاهر الجرجاني والسّكاكي من حجاء بعدهم، حيث وضعت الصياغة النّهائية لعلوم البلاغة (المعاني/البيان/البديع)، فأضحت بعدهم مجال عناية الدّارسين وموضع احتكام في تقويم جودة الخطاب شعرا أو نثرا.

غير أنّ هذه القواعد، بقدر ما مثلت معيارا يحتكم إليه، تحولت مع مرور الزمن إلى اداة مقيّدة لملكة القول، مما دعا الدّارسين المحدثين، في كلّ من الفكر الغربي والعربي إلى إعادة النّظر في مفهوم البلاغة، لتبرز إلى الوجود ما يعرف بالبلاغة الجديدة التي وسعت دائرة القول، وحرّرته من كثير من القيود.

وإذا نظرنا في فكر الجاحظ وجدنا أنّ له السبق في الإشارة غلى هذا الأفق الواسع للبلاغة، في غير ما موضع في مصنفاته، حيث عرض للخطاب وفنّ القول وصفات الخطيب وخصائصه، محرّرا بذلك فنّ الخطابة من التّقعيد والتّصنيف وواضعا اسسا أرحب لفهم البلاغة والخطاب وبالتّالي البعد البلاغي للخطاب.

إنّ الجاحظ ينظر إلى المعاني كما ينظر العقل إلى الظّواهر في الطّبيعة، فهي مبثوثة في العالم على سجيتها، يرها النّاس جميعا لكنّ لا يلتفت إلى جوهرها إلى عقل فطن وفكر متقد، أليست التفاحة سقط من الأزل أمام أعين البشر كافة، غير أنّ أعيننا متفطنة – كعين نيوتن – رأى من سقوطها سرّا أفضى إلى قانون قلب موازين الفيزياء – كذلك شأن المعاني عند الجاحظ فهي مطروحة في الطّريق يعرفها العربي والعجمي، لكن البلاغة لا تتحقق إلى حين تصاغ تلك المعاني في خطاب بليغ، يكشف الحجاب عن الضمير ويهبها حياة جديدة مختلفة، ومن هنا تبرز عبقرية الجاحظ في مقولته الشهيرة: "المعاني مطروحة في الطّريق يعرفها....فالألفاظ هنا أوعية للمعاني، واللغة ليست كلمات نلوكها، وإنّما عالم يعاش وحضارة تورث، والجاحظ بين هذا المفهوم حيث رؤيته لجوهر الخطاب باعتباره فنا يعيد تشكيل المعنى خلال عبقرية الكلمة ومرونتها وقدرتها على الانزياح والعدول مما يمنح الكلام القدرة على الاقناع والتأثير.

ويمكن القول إجمالا أنّ تصوّر الجاحظ للخطاب أيا كان نوعه ومهما كانت وجهته، فلا تتجلى بوضوح فيما استشهد به في البيان والتّبيين من صحيف بشر بن المعتمر التي عرفت باسمه إلى يومنا هذا.

فقد رأى فيها الجاحظ خلاصة البيان والبلاغة، حيث اعتبرها نموذجا جامعا لخصائص الخطاب المبين البليغ، وقد جاء فيها: "فكن في ثلاث منازل: فغن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا، وفخما سهلا، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا وقريبا معروفا، أما عند الخاصّة إن كنت للخاصة قصدت، وأما عند العامة إن كنت للعامة أردت، وإنّما مدار

الشّرف على الصّواب وإحراز المنفعة في موافقة الحال، وما يجب لكلّ مقال من مقال، فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك إلى أن تفهم العامة معاني الخاصة ونكسوها الألفاظ الواسطة التي تلطف عند الدّهماء ولا تحفو عن الأكفاء فأنت البليغ التّام"[9].

إنّ استشهاد الجاحظ بهذه الصحيفة نابع من اعتقاده الرّاسخ بأنّ الخطاب في جوهره مقام يوجه عملية التّواصل الاجتماعي، فلا يتحقّق مقصده المتمثّل في نقل المعرفة أو إقناع السّامع أو حمله على اتخاذ مواقف أو استثارة عواطف إلا بمراعة شرط الملاءمة بين عناصر الموقف التّخاطبي: المتكلّم والمخاطب والمكان والزمان واللغة ووسائل التعبير.

3. مفهوم الخطاب عند حازم القرطاجني البنية والوظيفة التأثيرية:

يعد حازم القرطاجني علامة فارقة في حقل النّقد العربي القديم إذ تفرّد بوضع الأسس التي يقوم عليها الخطاب، سواء أكان شعرا أم نثرا، وما وصلنا من آثاره يتركز أساسا في مصنفه الفريد منهاج البلغاء وسر الأدباء الذي لم يكن مجرّد كتاب يطوى في رفوف المكتبات، بل ظلّ على الدّوام معينا لا ينضب وموضوعا دائما لاهتمام البحاثين، وقد اختار له صاحبه عنوانا دالا يجمع بين المنهاج والسّراج، ليشير إلى وظيفته المزدوجة كونه دليلا منهجيا ومصدرا مهيئا يسترشد به الدّارسون والبلغاء ومن يروم ممارسة فعل الخطاب.

وعند حديث حازم عن الخطاب نلحظ أنّه تجاوز التّصور البلاغي التقليدي الذي انحصر غالبا في الزخرف اللفظي نحو رؤية أوسع تربط الخطاب ببنيته الدّاخلية ووظيفته التّأثيرية، فالخطاب عنده ليس مجرّد صياغة لغوية مزدانة بالمحسنات بل هو نسق محكم يرمي أساسا إلى تحقيق الغرض من القول، أي التّأثير في المتلقي واستمالته.

ولكي يحقّق غايته التواصلية لا بدّ أن يتسم بجملة من الخصائص التي أشار إليها حازم القرطاجني في غير ما موضع من المنهاج، فقد خصّ الخطاب الشّعري بمساحة أوسع من التّحليل والبيان، غير أنّ ملاحظاته حول بناء الخطاب تنصب بالضّرورة على الخطاب بوجه عام، شعرا كان أو نثرا، إذ إنّ القوانين والضّوابط التي وضعها تصلح أساسا لنظرية عامة في صناعة القول.

ومن أبرز القضايا التي نتوقف عندها حازم قضية اللفظ والمعنى حيث أولاهما عناية فائقة، ورأى أنّهما يشكلان معا محور بناء الخطاب، وقد ارتقى بهذا الاهتمام إلى مستوى ما يشبه النّظرية المتكاملة، فيكون بذلك قد وفّر الإرهاصات المبكرة التي ساعدت النّقاد من بعد على استكمال ملامحها.

وقد شدّد هذا الجانب على ضرورة اختيار اللّفظ المستعذب في الشّعر، وتجنّب الألفاظ الغريبة أو الحوشية أو العامية أو القبيحة، إلا إذا اقتضى السّياق استعمالات خاصّة، وبهذا جعل من نقاء اللغة وحسن انتقائها شرطا اساسيا في بناء الخطاب الجيّد، بوصفه بنية ذات وظيفة تأثيرية تسعى إلى إقناع المتلقي واستمالته.

وحازم القرطاجني في هذا الباب نبّه فيها إلى أهمية اختيار اللفاظ بما يوافق المعاني جاء فيها: "وإنّما الوضع المؤثر وضع الشي الموضع اللائق به، وذلك يكون بالتوافق بين اللفاظ والمعاني والأغراض في جهة ما يكون بعضها في موضعه من الكلام متعلقا ومقترنا بما يجانسه ويناسبه ويلائمه من ذلك"[10].

هنا إن دلّ على شيء إنما يدلّ على أنّ حازم القرطاجنّي يرى أنّ بلاغة الخطاب إنّما تتأسس على مدى التّناسب بين اللفظ والمعنى والغرض، وبالتّالي وضع اللفظة للمعنى الذي يتناسق معها، ثم يوضع الكّل خدمة للغرض المقصود من الخطاب ومنه يحدث الأثر المطلوب في المتلقي.

ومن الركائز الأساسية التي يستمدها الخطاب شعرا كان أم نثرا أن تبنى عباراته بناء لغويا محكما، يراعي النّسق الدّاخلي للنّص من خلال اهتبار الألفاظ الملائمة لغرض الخطاب، على أن تكون مفهومة لدى المتلقي ضمن الإطارين الزمني والمكاني لكلّ من المتكلم والمخاطب.

كما ينبغي أن يراعي الخطاب الواقع الاجتماعي للجمهور الذي يوجه إليه، وكذلك مستواه الثقافي والمعرفي لأنّ هذه العناصر مجتمعة تساهم في إنتاج معنى واضح وجلي للخطاب يمكن المتلقي من فهمه والتفاعل معه، وبهذا يتحقّق الفعل التّواصلي الذي يسعى إليه حازم القرطاجنّي وتتحقق معه وظيفة التأثيرية المرغوب فيها.

وقد عبّر حازم عن هذا المعنى يقول: "وكذلك يحسن نظم القصيدة من الفصول الحسان كما يحسن ائتلاف الكلام من اللفاظ الحسان إنّما كان تأليفها منها على ما يجب،

وكما أنّ الكلم لها اعتباران: اعتبار راجع إلى مادتها وذاتها، واعتبار بالنّسبة إلى المعنى الذي تدل عليه"[11].

ففي هذا النّص إشارة جلّية من حازم القرطاجني على أنّ جودة الخطاب إنّما تبنى على حسن اللفظ من جهة، وعلى مطابقة المعنى لمقتضى الحال من جهة أخرى، اي أن يكون هناك تلاحم بين البنية اللغوية والوظيفة التواصلية للخطاب.

وعندما نتحدث عن الخطاب فإنّ الفعل الذي يقوم البناء هو البناء، والبناء في جوهره إنتاج غير أنّ هذا البناء لا يكون جيّدا إلا إذا كان مرصوصا ومنسجما، ومن يتحقق ذلك لا بدّ أن تراعي فيه جملة من الشّروط والخصائص، فيها ما يتصل بمادة البناء أي الألفاظ والمعاني ومنها ما يتعلق بظروف البناء، أي السّياق الذي يستعمل فيه الخطاب وما يضمن مقبوليته واستعماله وتداوله بين النّاس.

وهذا التّصوّر يقودنا إلى أصل الأصول في مختلف أوجه التواصل الإنساني، وبخاصة التواصل الخطابي وهو ما أصلح عليه البلاغيون بالمقام، فالمقام عندهم هو عمودج التواصل بين البشر، وركزت كل الصيغ التي يتخذها الخطاب، ولأنّ المقامات تتعدّد بتعدّد أصول المتكلّمين والمخاطبين، فإن الخطاب يكتسب بفضلها مرونة تمكنه من التّكيف مع مختلف السياقات، فينكون تبعا لها ويختلف بحسبها.

ومن هنا جاء قولهم المأثور: لكل مقام مقال، وقد عبّر البلاغيون عن هذا المبدأ بقولهم إنّ جودة الكلام مطبقته لمقتضى الحال، وهو الأساس الذي بنيت عليه نظرية المقام في البلاغة العربية.

فعندما يحسن المتكلّم التّصرف في كلمه ويتمكن من التحكم في العبارة اللغوية، يثري (يغني) خطابه بما يجذب الانتباه ويأسر السامع، كما يزين العقد بالجواهر واللآلئ، فكأنّ كلماته وعباراته اختبارات فنّي مقصودة تثير الاهتمام وتستميل النّفوس، فيتحقّق بذلك التأثير في المتلقي، أيًا كان موقعه أو مقامه.

ويعود هذا التأثير إلى ما تطاوعه اللغة عليه وتسعفه من أدوات نحوية وصرفية وبيانية وبلاغية، وإلى حسن التأليف وصدق المقاصد مما يولد المعاني والدّلالات المطلوبة.

ومحصل ذلك كلّه قدرة المتكلم على نظم الكلام بحيث يكتسب مع كثرة الممارسة ملكة خاصة تميزه حتى يعرف بها ويشار إليه بأسلوبه الذي يصبح عنوانا عليه ودليلا له، وبعبارة أوضح، فإنّ إحساس المتلقي وانفعاله بينما يسمع أو يقرأ شعورا بالارتياح أو النّفور، إنّما مصدره قدرة المتكلّم على التّصرف في خطابه وكلمة في جميع عناصره ومقوماته.

وكلّ ما سبق (تقدّم) يشير إلى النّظام الجوهري في العملية التواصلية، وهو ما يطلح عليه بلاغيا بالمقام والسّياق، فقد أجمع البلاغيون ومن سار على منهجهم من دارسي الخطاب، على أنّ القول لا يبلغ درجة البلاغة إلا إذا تعدّدت معانيه وتلونت دلالاته، بحسب المقام الذي يرد فيه، إذ يستمد الخطاب مادته الأساسية من المقام والسّياق، أي من جملة الملابسات والظّروف التي تحيط به، فاللفظة الواحدة قد تتعدّد دلالاتها باختلاف المورد لذي ترد فيه، وتستمد معناها الحقيقي من السياق الذي قبلت فيه.

وعلى هذا الأساس نجد القرطاجنّي وهو يضع القوانين النّاظمة لفنّ القولن يؤكد على ضرورة مراعاة المقام أثناء التّخاطب، باعتباره شرطا لنجاح الخطاب في أداء وظيفته التّأثيرية.

ولذلك فـ"إنّه يختار ما تناسب مع منزلته ومنزلة المرسل إليه، بما يراه عند إعداد خطابه، وفق ما يقتضيه موقعه، أما الاجتماعي أو الموقع الوظيفي أو غيرهما، كما يتوخى اختيار ما يتناسب مع السياق العام، فخطاب التّاجر مع زبونه يختلف حتما عن خطاب التّاجر مع آخر مثله، كما يختلف خطاب ملك أو أمير مع أحد رعاياه عن خطابه مع آخر من أنداده"[12]، وقد وردت في ثنايا منهاج البلغاء وسراج الأدباء إشارات عديدة تدلّ على وعي حازم العميق بهذه العلاقة بين البنية اللغوية والوظيفة التّداولية، وهو ما جعل تصوّره للخطاب يتجاوز حدود الحال اللفظي إلى أفق أوسع، قوامه التّفاعل والتّأثير في المتلقي.

ومن هذه الإشارات خترنا معلما من المعالم التي يعتمدخها حازم لتوضيح تصوّره للخطاب جاء فيه: "إنّ المنازع هي الهيئات الحاصلة عن كيفيات مآخذ الشّعراء في أغراضهم، وأنحاء اعتماداتهم فيها، وما يميلون بالكلام نحوه أبدا، ويذهبون به إليه، حتى يحصل بذلك للكلام صورة تقبلها النّفس أو تمتنع من قبولها، والذي تقبله النّفس من ذلك ما كانت المآخذ فيه لطبقة، والمقصد فيه مستطرفا، وكان للكلام به حسن موقع في النفس، والمعين

على ذلك ينزع بالكلام إلى الجهة الملائمة لهوى النّفس من حيث تسرها أو تعجبها أو تشجوها...."[13].

مما سبق نجد أنّ حازما القرطاجنّي يورد مصطلح المنزع الذي يعني بالأساس علاقة الخطاب بالمقام، وهو يرى أنّ جودة الخطاب لا تكمن في جماليات ألفاظه ونظمه فقط، إنّما في مدى ملاءمته للحالة الشّعورية للمتلقي في ذلك المقام والسياق الذي قبل فيه.

ولأنّ التّقليد لا يمنع الابتداع فإنّ حازم القرطاجني وإن كان قد تتلمذ على من سبقه في ميدان البلاغة بشكل أو بآخر، إلا أنّه بحكم موقعه الزماني والجغرافي اتسعت روافده المعرفية فجمع بين الثقافة العربية الأصيلة والثقافة الفلسفية الوافد، ولا سيما لفكر اليوناني وفكر أرسطو على وجه الخصوص.

وقد أجمع الدّارسون لمنهاج البلغاء وسراج الأدباء على أنّ أثر أرسطو فيه واضح وجلّي حتى عدّ رافدا من روافده الفكرية الأساسية، سواء من خلال النّص المباشر لمقولاته أو من خلال استيعاب مضامينها وإعادة صاغتها في ضوء مقاصده البلاغية الجديدة، دحضا أو إضافة أو تطويرا.

ومن أمثلة ذلك ما أشار إليه الدكتور محمد حافظ الرّوسي: "وممّا أخذه من كتاب فنّ الخطابة لأرسطو حديثه عن الغرابة، وذلك في قوله: للنفوس تحرّك شديد للمحكيات المستغربة لأنّ النّفس إذا خيّل لها من الشّيء ما لم يكن معهودا من أمر معجب في مثله وجدت منه استغراب ما خيل لها مما لم تعهده في الشيء كما يجده المستطرف لرؤية ما لم يبصره من قبل"، وغير خاف أنّما أخذه حازم كما أخذه غيره عن ابن سينا في الخطابة... وهذا من قول ارسطو أيضا.

ومن هنا يشعر النّاس نحو الأسلوب كما يشعرون به نحو الغرباء والمواطنين ولهذا ينبغي أن نضفي على لغتنا طابع الغرابة، لأنّ النّاس يعجبون بما هو بعيد وما يثير الإعجاب يسرّ ويمتع.[14]

من خلال هذا التّفاعل الخصب بين المرجعية الأرسطية والعربية، يتجلّى سعي حازم إلى تأسيس رؤي تركيبية للخطاب تجمع بين العقلانية والمنزع الجمالي.

وبهذا خلص حازم القرطاجنّي إلى أنّ أهم خاصية يجب أن تتوافر في الخطاب –أيا كان نوعه- هي أن يقوم على بناء بلاغي محكم، يتجلّى في حسن تأليفه اللغوي وتناسق أجزائه وانسجامها، وفي قدرة لغته على التّكيف مع مقاصد الخطاب ومعانيه، كما يشترط أن يراعي في صياغته المقام والسياق الذي يذاع فيه، بما في ذلك الأوضاع الثقافية والاجتماعية والسياسية والدّينية للأطراف المخاطبة، على أن يطعم الخطاب بالحجج المناسبة لكلّ مقام تواصلي حتى تحقق غايته التأثيرية المنشودة.

4.التّحول في وظائف الخطاب بين الجاحظ وحازم القرطاجنّي من البلاغة البيانية إلى البلاغة الحجاجية

إن لم يكن من باب المبالغة القول إنّ الجاحظ يمثل لبدايات المتقدّمة في سمسار الدّرس البلاغي العربي القديم، فإنّ حضوره جاء في سياق فكري احتدم فيه الجدل والمناظرة بين الفرق والمدارس الكلامية، فكان لذلك أثره على بلورة منهجه الجدلي القائم على قوة البيان والاحتجاج العقلي، ومن هذا المنطلق بنى الجاحظ تصوّره لمفهوم الخطاب مركزا على الجانب البياني وجاعلاً من اللّفظ محور البناء الخطابي وأساس التأثير وهو القائل: "المعاني مطروحة في الطّريق يعرفها العجمي والعربي...." ليؤكد أنّ جودة الخطاب رهينة بسلامة اللفظ وحسن تأليفه.

ومما ذكره في هذا الباب "جماع البلاغة البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة" [15].

وعلى خلاف ذلك أو بالأحرى امتدادا له في طور أكثر نضجا وعمق، يبرز حازم القرطاجنّي الذي جاء في مرحلة ازدهار الدّرس البلاغي وتشعبه، وقد أتاحت له ثقافته الواسعة، المنتشرة من موارد عربية ويونانية، أن يصوغ تصوّرًا أكثر توسعًا لمفهوم الخطاب، فهو لم يحصره في البعد البياني فحسب، بل أضاف إليه أبعادًا أخرى تتعلّق بالبناء اللّغوي والمقام والسّياق والحجاج العقلي لتغدو وظيف الخطاب عند مزدوجة: جمالية وتأثيرية في آن واحد.

وإن كانت للتواصل وسائل شتى، فإنّ اللغة منطوقة كانت أو مكتوبة تظل أهمها وأبلغها تأثيرا، إذ بها تتحقق الغايات الواصلية في أصلها، وهي نشر قيم الخير والنّفع، والدّفاع عنها، ونبذ اللغة بمفرداتها وحدها لا تكفي لتحقيق هذه الغاية، لأنّ الواصل الحق

لا يكتمل إلا بوجود عنصر الإقناع والتّأثير، وهنا برز دور الحجاج باعتبار الوسيلة الفاعلة التي تمنح الخطاب قوته وفاعليته.

فالخطاب في جوهره، كيفما كان نوعه وصورته هو فعل حجاجي يسعى فيه المتكلّم إلى التأثير في المتلقي واستمالته إلى رأيه أو قضيته، وذلك باستعمال الحجج المناسبة للمقام والسياق، وليس أدلّ على ذلك من الخطاب الإلهي نفسه إذ يقوم على الحجة والبرهان: وجدلهم بالتي هي أحسن" وما المحجة البيضاء إلا رقي للبيان الحقّ المؤسس على الحجة السّاطعة والدّليل القاطع.

ومن ثمّ فإنّ غاية الحجاج هي إثارة انتباه المتلقي ودفعه إلى تقبل غرض الخطاب واستيعاب مقاصده، ثمّ التّأثر بها والانقياد لها، وينجز ذلك بقوة الحجّة التي نتوسل بها لغة الخطاب، ويتجلّى الفعل الحجاجي في الخطاب من خلال تنوّع وسائل الإقناع التي يوظفها المتكلّم قبل الأدلة العقلية والبراهين المنطقية والاستعارات والمجازات، والقصص التّمثيلية، وغيرها من الأدوات التي تمكنه من السيطرة على المتلقي فكريًا وذهنيًا ووجدانيًا.

ولعلّ من أبرز الإضافات التي قدّمها حازم القرطاجنّي للبلاغة العربية نظرته إلى الخطاب على أنّه بناء حجاجي منظّم، متأثرًا في ذلك بالفكر الفلسفي اليوناني القائم على الجدل والمناظرة بالحجج المنطقية وتدلّ على هذا المنحى إشاراته الواضحة في المنهاج، حيث يقول: "واعتبار ما تكون عليه المعاني من صحة وكمال ومطابقة للغرض المقصود بها وحسن موقعها من النّفس يكون بالنّظر إلى ما المعفى عليه نفسه، وبالنّظر إلى الغرض الذي يكون الكلام مقولا فيه، وبالنّظر إلى حال الشيء الذي يعلّق به القول"[16].

هذا النّص يوضّح لنا بشكل جلّي أنّ حازما يمنح للمعاني وظيفة تواصلية حجاجية، من خلال مطابقة الغرض والمقام، وبالتّالي إقامة الحجّة على المتلقي فيتحقق بذلك المقصد من الخطاب وهو الإقناع ثمّ التّأثير.

وهكذا يتبيّن أنّ كلا من الجاحظ وحازم القرطاجنّي قد أسس كلّ في عصره، الرؤية بلاغية متكاملة هي إلى يومنا هذا موضع نظر الباحثين ومثار إلهام في مقاربة الخطاب العربي قديمه وحديثه.

خاتمة:

من خلال هذه الدّراسة يتضح أن اختيارنا نموذجي "الجاحظ" و"حازم القرطاجنّي" على الرغم من المسافة التّاريخية الفاصلة بينهما، يكشف عن المسار التّطوّري لمفهوم الخطاب البلاغي العربي، لقد شكّل الجاحظ الحلقة الأولى في تأسيس الإطار المفاهيمي والمعرفي للخطاب، واضعا بذلك اللّبنات النّظرية الأولى والأرضية الخصبة لمن يأتي بعده.

بينما يمثل حازم القرطاجنّي من النّاحية التّاريخية مرحلة متقدّمة في سياق تطوّر البلاغة العربية حيث استفاد من أسلافه – الجاحظ والسّكاكي – دراسة واستيعابا وتمثلا ونقدا، وقد أتاح له سياقه الثقافي المتنوّع وموقعه كمتلقي مبدع، أن يبلغ درجة الاجتهاد، مضيفا إلى الدّرس البلاغي إضاءات نظرية متقدّمة.

ولعلّ الأهم من ذلك أنّ هذه الإضافات شكّلت في رأي العديد من الدّارسين – الجذور الأولى لم استحدث لاحقا في حقل البلاغة في المدارس الغربية.

وهذا يدلّ دلالة واضحة على أنّ فكر كل من الجاحظ وحازم القرطاجنّي لا يزال يشكّل أفقا فكريا واسعا، حول الأساسات الأولى لمفهوم الخطاب إن من جوانب البناء اللغوي أو المقام أو السياق ثمّ الواقع الثقافي والاجتماعي والسياسي الذي يحدّد مقاصده والمتلقي وحالته وموقعه من ذلك كلّه مما يسعفه على تلقي الخطاب بأفق أوسع.

6. الإحالات والهوامش:

[1]- الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، مكتبة ابن سينا، ط1، ج1، 2010. ص77.

[2] - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص177.

[3] - حمادي صمود، الفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط3، 2010.

[4] - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص80.

[5] -لخذري سعيد، الدّرس البلاغي العربي بين السيميائيات وتحليل الخطاب، كلمة للنّشر والتوزيع ، تونس، ط1، 2017، ص159.

[6] - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1،ص107.

[7] - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص107.

[8] - حسين خمري، نظرية النّص –من بنية المعنى إلى سيميائية الدّال، الدّار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2007، ص327.

[9] - الجاحظ، البيان والتّبيين، ج1، ص107.

[10] - حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص153.

[11] - حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص287

[12] - عبد الهادي بن ظاهر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط1، من المقدّمة، ص7.

[13] - حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص365.

[14] - محمد الحافظ الروسي، ظاهرة الشّعر عند حازم القرطاجنّي، ج1، دار الأمان ، الرباط، ط1، 2008، ص110.

[15] - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص77.

[16] - حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص129.

7. قائمة مصادر البحث ومراجعه:

- الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، مكتبة ابن سينا، ط1، ج1، 2010.

- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981.

-محمد الحافظ الروسي، ظاهرة الشعر عند حازم القرطاجنّي، ج1، دار الأمان، الربط، ط1، 2008.

- حسين خمري، نظرية النّص من بنية المعنى إلى سيميائية الدّال، الدّار العربي للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2007.

- حمادي صمود، التّفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوّره إلى القرن السّادس، دار الكتاب الجديد المتدة، بيروت، ط3، 2010.

- لخذاري سعد، الدّرس البلاغي بين السيميائيات وتحليل الخطاب، كلمة للنّشر والتوزيع، تونس، ط1، 2017.

- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2004.